مشروع صون التراث السوري العاجل

الأستاذة أمينة الحسن(*)

دعاني مَنْ لا يسعُني مخالفتُه الدكتور: «محمود السيد» لإلقاءِ هذه المحاضرةِ، وإنّي أتقدّم بالشكرِ الجزيل له، ولرئيسِ مجمعِ اللغة العربية الدكتور: «مروان المحاسني» على دعوتي إلى هذه المأدبة التراثية، وأشكرُ جميعَ مَن لبّى دعوتي من أساتذتي المكرَّمين.

السادة الحضور الأكارم، تحية وبعد: لقد قضى أجدادُنا العلماءُ جلَّ عمرِهم في العلمِ والتحصيل، وأتَوا بنفائسَ وكنوزٍ بقيت إرثاً لنا، وتراثُنا غزيرٌ متنوع، وكلمةُ التراثِ مأخوذة من وُرِثَ، والتاءُ فيها مبدلةٌ من الواو، وتعني: وراثةَ المال، وتراثُنا يشملُ الآثارَ المكتوبةَ الموروثةَ التي حفظَها لنا التاريخُ فوصلت إلينا في صورةِ كتبٍ مخطوطة، وقد كانتِ الكتابةُ باليدِ وسيلةً متواضعةً لنقلِ المعرفة.

والمخطوطاتُ هي كلُّ ما كُتبَ بخطِ اليد، وتنقسم إلى قسمين: مخطوطاتٌ قديمةٌ وهي التي يُقدَّرُ عمرُها بأكثرَ من خمسين عاماً. ومخطوطاتٌ حديثة: وهي التي عمرُها أقلُّ من خمسين عاماً.

لَقيتْ هذه المخطوطاتُ اهتماماً كبيراً منذ القديم، فقد اهتمَّ النَّساخُ بنسخِها، والمجلِّدون بتجليدِها، والمذهِّبون بتذهيبِها وزخرفتِها، والمخطوطاتُ

(*) أمينة المخطوطات والكتب النادرة في مكتبة الأسد - دمشق - سورية.

ثروةٌ قوميّةٌ تفخَر بها الأمةُ العربية، وهي نبعُ عطاءٍ ومرجعٌ في جميعِ ميادينِ العلوم، وهي أمُّ الثقافة، ومرجعٌ أساسيّ ينهلُ منه طلبةُ العلم.

وتُعَدُّ مكتبةُ الأسد المكتبةَ الوطنيةَ للقطر العربيِّ السوريِّ من كبرى المكتباتِ الحديثةِ في الوطنِ العربي، وهي وعاءٌ فكريٌّ تقدَّسَ بأسرارِها.

وتحتفظُ بمجموعةٍ كبيرةٍ من المخطوطاتِ التي آلتْ إليها من المكتباتِ الأخرى كالمكتبةِ الظَّاهرية بدمشقَ التي ورد لنا منها (١١٩٠٤) ذُكِرَتْ في سجِّلِ الظاهريةِ الذي طبعه الأستاذان الخيمي والحافظ، ومن المكتباتِ المتعددةِ في حلب، ومكتبةِ مديرية الآثارِ والمتاحف، والمركزِ الثقافيِّ في حماة وإدلب، زيادةً على ما يَرِدُها باستمرارٍ من مخطوطاتٍ عن طريقِ الإهداءِ أو الشراء.

وهناك عدَّةُ تسمياتٍ لها منها:

المخطوطاتُ الخزائنية: وهي التي كان يكلِّفُ فيها أحدُ السَّلاطين أو الوزراء كاتباً بالنسخ لخزانتِه الخاصة، والمخطوطاتُ الفريدةُ: وهي التي لا يوجدُ منها نسخٌ أخرى في الخزائن.

وهناك مخطوطاتٌ نسخَها مؤلفُها بيدِه، أو أشرفَ على نسخِها وتصحيحِها المؤلفُ نفسُه.

ولدينا مجموعةٌ ثمينةٌ من المخطوطاتِ القديمةِ التي يزيدُ عمرُها عن ألفِ عام ومنها:

- مسائل الإمام أحمد بن حنبل: له تاريخ سماع سنة (٢٦٧هـ).
- صفة النار لابن أبي الدنيا: تاريخ نسخه (٣١٠هـ).
- شرح ديوان الفرزدق: تاريخ نسخه (٣٣١هـ).
- التربيع والتدوير للجاحظ: تاريخ نسخه (٤١١هـ).

تعرَّضتِ الكثيرُ من المخطوطاتِ وخزائنِ الكتبِ للضياعِ والدَّمار، والتَّلفِ والسَّرقة، لأسبابٍ مختلفة، وخلالَ الغزوِ المغوليِّ لبغدادَ سنةَ (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م) أُحرق ودُمِّر العديدُ من خزائنِ الكتب، ومنها خزانةُ المدرسةِ المستنصريةِ التي رُميتْ بعضُ مخطوطاتِها في نهر دِجلة، وسُرِقَتْ مجاميعُ من نوادرِ المخطوطات من (نصيرِ الدين الطوسيّ) الذي دخل مع هولاكو إلى بغداد، ولم تسلمْ خزائنُ المخطوطاتِ من السَّرقةِ والتهريبِ أثناء الاحتلالِ التيموريِّ والصفويِّ لبغداد.

لقد بُذِلَتِ الجهودُ الكبيرةُ في العصرِ الحديثِ لإنقاذِ ما يمكنُ إنقاذَه من المخطوطاتِ التي سَلِمتْ من الكوارثِ والنكباتِ السابقة، وعَرفَ العالَمُ أهميةَ إنقاذِها، وحمايتِها، والحرصِ عليها، نظراً لأهميتِها، فهي قبلةٌ للباحثينَ التي تفتحُ لهم آفاقاً معرفيةً للنهوضِ والرقي.

لا بدَّ من توحيدِ الجهودِ لإنقاذِ المخطوطاتِ ورعايتِها، وتجميعِها، وتصويرِها، وتحقيقِها والتعريفِ بها لوسائل متعددةٍ. وحمايةُ المخطوطاتِ يجب أن تخرجَ من الاهتمامِ الفرديِّ إلى الاهتمامِ المؤسساتي، ولا بدَّ من زياراتٍ علميّةٍ للمكتباتِ الشرقيةِ والغربيةِ للاطّلاعِ على الطرائقِ المتَّبعة لصونها وحمايتِها.

ولقد حضرتُ مقدمةَ مشروعِ دورةٍ عُقِدَتْ في بيروتَ بعنوان: (مشروع الصون العاجل للتراث) برعايةِ منظَّمةِ اليونسكو. ويُعَدُّ مشروعُ صونِ التراثِ العاجلِ السوريِّ مشروعاً مهمّاً؛ لحمايةِ التراثِ الثقافيِّ السوريِّ من أعمالِ الدمارِ والتخريبِ التي قد تطالُ سورية.

من هنا لا بدَّ من إعدادِ محاضراتٍ وأنشطةٍ في المراكزِ الثقافية، والمجامعِ اللغوية، ووسائلِ الإعلامِ الدوليةِ والإقليميَّةِ والوطنية، وشبكاتِ

التواصلِ الاجتماعية؛ لتوعيةِ المثقفين والعاملينَ وأصحابِ الخبرة لفهم الواقع، واتخاذِ التدابيرِ اللازمةِ والسريعةِ لحمايتِهِ، وصونِه.

ولرجالِ الشرطةِ والجمارِكِ دورٌ كبير في مكافحةِ تهريبِ الممتلكاتِ الثقافيةِ والتراثية.

وتتضافرُ الجهودُ لتدريب العاملينَ لحمايةِ التراثِ أثناءَ النزاعِ وبعَدهُ، وذلك بإقامة دوراتٍ يشرفُ عليها مختصونَ من منظماتٍ محليةٍ ومجتمعٍ مدني.

ومن الضروريِّ العملُ الدؤوبُ على التخطيطِ لمراقبةِ التراثِ الثقافيِّ في سوريةَ من الجهاتِ المعنيَّةِ بصونِ هذا التراثِ كمنظمةِ اليونسكو التي انطلقتْ بمشروعِها الأولِ في الأولِ من آذار عام أربعةَ عشر وألفين (٢٠١٤) ليستمرَ ثلاثَ سنواتٍ.

والمخطوطاتُ الأصلية إرثٌ عظيمٌ من الأجدادِ الذين انكبُّوا على العمل في التأليفِ والتصنيفِ والإبداعِ خلالَ زمنٍ طويلٍ ليقدِّموا إلينا ثمرةَ نتاجِهم الفكريِّ الذي يُعَدُّ كنزاً ثميناً.

يجدر بنا أن نحتفيَ بهذا الكنز؛ وذلك بالمحافظة عليه من أيدي العابثين.

وعلى المكتبات التي تقتني هذه المخطوطاتِ الثمينةَ أن تقومَ بالمحافظةِ عليها؛ وذلك بتعقيمِها، وترميمِها، وتجليدِها، ووضعِها في ظروفٍ مُناخيةٍ مناسبةٍ بدرجة حرارة (١٨) مئوية، ودرجة رطوبة من (٥٥) إلى (٦٠) درجة مئوية.

على أمناءِ المستودعاتِ أن يضعوها على رفوفٍ معدنيةٍ بشكل عموديٍّ منتظم، وعليهم أن يقوموا بإجراءاتٍ لإرسالها إلى المختصين بتعقيمِها، وترميمِها، وتجليدِها؛ بغيةَ المحافظةِ عليها من التلفِ والفطرياتِ والحشراتِ والأَرضَةِ التي قد تؤثر فيها.

ولا بدَّ من إعدادِ خبراء بترميمِ وتعقيمِ وتجليدِ المخطوطات من طريق اتِّباعِ دوراتٍ متتاليةٍ يشرف عليها مختصون.

ولعلَّ أجهزةَ إطفاءِ الحريقِ من الأشياءِ الضروريةِ التي ينبغي أن تكونَ قريبةً من المستودعاتِ عند نشوبِ أيِّ حريق.

على العاملين في مجالِ المخطوطاتِ الاعتناءُ بأرشفتِها ضمنَ قوائمَ أو سجلاتٍ لتقييدِها. ويجدر بهم الاهتمامُ بفهرستِها وتصنيفِها، وإعدادِ فهارسٍ مطبوعة وإلكترونية لها. وقد قامتْ مديريةُ المخطوطاتِ بإعداد ما ينيف عن أربعين فِهرساً في موضوعاتٍ متنوعة.

وقام العاملون بمديرية التصوير بتصويرها بأشكال متعددة منها:

على مصغراتٍ فلميةٍ (مكروفلم): (قرص فلمي)، (مكروفيش): (شرائح فلمية) ولا بدَّ من تعهدِها بالتهويةِ المستمرةِ ضمنَ أدراجِها.

ويجري تصويرُها على أقراصٍ مدمجةٍ وأقراصٍ صلبة لرقمنتها.

كلُّ هذه الإجراءاتِ لخدمةِ الباحثين دونَ الاطِّلاعِ على النسخِ الأصليةِ للمخطوطات؛ وذلك للحفاظِ عليها من التكسرِ والتلف.

ومن المقترحاتِ لصونها زمنَ الحربِ نقلُها إلى مكانٍ سريٍّ آمنٍ تتوفر فيه الشروطُ المناسبةُ الآنفةُ الذكر، والمحافظةُ عليها أثناءَ نقلِها.

ومن الضروريِّ اتِّخاذُ الإجراءاتِ الاحتياطيةِ لحمايتِها في المعارضِ الدائمةِ والموسميّة؛ وذلك بوضعِها ضمنَ خزائنَ زجاجيةٍ مغلقةٍ بإحكام ومغطَّاة، يشرفُ عليها عاملون أكفياء.

أما بالنسبةِ للكتبِ النادرةِ فهي كتبٌ مطبوعة تحتلُّ مساحةً مهمةً بعد النُسخِ الخطية؛ وذلك لكونها فريدةً وقديمة، ولها مزايا متعددةٌ اكتسبتْها من الندرة، كالقياسِ الكبيرِ أو توقيعاتِ أحدِ الوزراءِ أو السلاطين في عهودٍ سابقة.

ولِما للكتبِ النَّادرةِ من أهميّةٍ كبيرةٍ قمنا بتصويرِها وتعقيمِها وترميمِها لصيانتِها.

وأخيراً أتقدمُ بجزيلِ الشكرِ لكلِّ مَنْ ساهمَ في صونِ وحمايةِ هذا التراثِ الغالي ولِمَنْ عملَ على دعوتِنا لهذه الندوة المهمّةِ لعلَّ هذا الحاضرَ يحتضنُ ماضياً عريقاً جديراً بالمحافظةِ عليه.

* * *